

وحي الثلاثين للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذي بينيني ، أقف مستدبراً
مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التي
كونت جسمي ذرة ذرة ، وملأت رثني شهقة وأفرغتها زفرة ،
وسلكت عقلي فكرة فكرة !

وأريد في وقتي هذه أن يكون في روحي غيبوبة وامتداد ،
وفي ذاكرتي صحو واجتماع ، وفي قلبي حنين واحتياج ، وفي عقلي
سكون وإدراك ، وفي جسمي صحة ووُعود ، وفي قلبي حساسية
وبيان . . . فإن الصور التي أرسدها مخبوءة في رُكّام من آياتي
البالية التي لبستها أمام الشمس والقمر قطعاً بالخالعين « الأبيض
والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمه أو دمه أو فكرة أو ذكرى ،
أو قطعة من قلبي أو هزة من جسمي في عرارة الطفولة أو صحوة
الصبا أو فوّة الشباب الذي يوشك أن يمضي به ما أشاب الصغير
وأفنى الكبير من كَرّ النداء وصرّ العشي . . . !

أمس ! بإوادي الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة .
أنا الآن في حركة إديار وارنداد إليك ، في ساعة ليس لي فيها
حاضر راهن يشغلني ، ولا أمل غائب يغالزني ، واقف فيك على
أطلالي ! أبحث فيها عن سور عيني ولها فيك ظلال ، وأنتقام أذني ،
ومنها بك أصداء . . . بل إني لأبحث عن سرى وميراثي من عهد
آدم حادراً في الأصلاب منتقلاً في الأحتجاب في عالم غيبي
ومشهدى !

فن لي بما يروى لي ما بين مُبتدأى ويومى هذا . . . ؟ إنها
شقة بعيدة أحسب أنها تُعني تهاويل الخيال المسعد !

وقد قالت « الفسليجة » : إني صورة تتجدد فيها خلايا جسمي
كل سبع سنين . . . فلتستأنس أن الجسم الأول ولّا الثاني ولا الثالث
ولا الرابع . . . وليس في بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائي التي
مدت وأبعاضني التي عُيبت ، فلن أجدها إلا في ذلك الجسم العظيم

الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش في سلام بعيداً عن ذلك الماضي
الذي يريه ويرعبه

ولما عاد الامبراطور من منفاه في إلبا توجس رسم ثرا ،
وهزول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور
رؤيته ، وردّه باحتقار . وكان رسم يقيم عندئذ متزويماً في بعض
ضواحي باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة
الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة
وهزم نابليون في واترلو وحمل إلى منفاه في سنت هيلانه ؛ ولم
يهتز رسم لهذه الحوادث ، وقع من الحياة بالهدوء ، والسكينة ؛
وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم
يحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد
أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فزاه في سنة ١٨٢٤ يسافر إلى
لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهناك يعرض نفسه
في ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رسم في لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل
بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهناك
لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه
الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم
يكن يتمتع يومئذ بشي من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب
الصيد ، ويفيشي مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر
الصداقة الثينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور
ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛
وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن
لبلاده خائن لولي نعمته ، بيد أن رسم لم يكن ليعبأ بهذه الملاحن ،
وكان يحتفظ دائماً بسكينة وهدوء نفسه

وتوفى رسم في سنة ١٨٤٥ ، في الرابعة والستين من عمره
ودفن بقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتي « هنا يثوى رسم
رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من
أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر التكريات الحية في
تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١)

محمد عبد الله عثمان

(١) استنساخ معظم التفاصيل الخاصة بحياة رسم من المؤرخ الفرنسي

لنوتر Lenotre

وحملها الإنسان . . . صوت أمك . . .

وبكيت من ازدحام هذه العوامل على جسمك الرقيق القريب
بينها فأذاقوا فاك لذته فسكت . . . وكان هذا أول درس عرفته
من منطلق أهل الأرض مع المرعجين . !

ثم عاشت هذه الكتلة طفيلية في حياة حياة النبات ، وفي
فراغ كفراغ النائم ومضت الدنيا تدور كل يوم حول « صندوقها
العجيب » فتدخل إليه على شعاع أو صوت أو طعم أو لمس
لتثبت وجودها فيه أو لتخلق فيه خلقاً آخر على الأصح
« والأ كوان عداد العقول » كما يقول الراض العظيم .

وتفاعلت أشياء الدنيا مع أشياء القلب فأخذ الشخص الكامن
يبدو ويمتد فكل ذرة تلد وكل معنى يتركب من هذه الأجدية
وظهرت بعض النسب بين الأشياء ، واشترأت الأشياء إلى
براهين وجردها . . .

فقلت لصوت النجوى : أكانت الدنيا عدما قلمي ؟ !
فأجاب : قلت بعض الفلاسفة : الدنيا فكرة !
قلت : لا ! بدون برهان . . .

قال الصوت : أنت وأخوك قد خرجتما من مستقر واحد
بجسمين مختلفين قد تميمتكم روح وتقمصته أخرى . أفرايت
لو خالف بينك وبينه فكنت إياه وكان إياك ؛ أفلا كان العالم غير
ناهو الآن عندك وعنده وعند الناس ؟

فتأملت ولم أعط الجواب للآن . !

ثم انقطع الصوت وابتدأت أرى في الجمجمة خيوط ضوء
على حواء وآدم في شخصي الأم والأب ، وأسمع منها أهانج
الجنة وأصوات ولدانها في أصوات لداني وأترابي بملاعب الطفولة ،
وأرى قطعة من سماء القاهرة والشمس فيها والقمر ، فوق المكان
الذي تيقظت فيه من النسيوبة والذهول : حارة الروم . . . سقاها
الحيا ، فوقفت أبحث عن الطفل الصغير وضعفه وجهه وبرادته
وفراغه وثيابه وحلواه وحيوانه وصورته التي كان يتمجج منها
كثيراً . . . فوجدتها أشياء لا تزال تضحك كما كانت . . .
وأنا أبكي بعلمي وأنوء بقوتي ، وأنفجر بامتلائي وأجن تيقظتي . . .

الذي أنا خلية منه : الأرض . وإلها من تيه لمن يبحث !

إذا ياروحى ، أنت « المكان » الذي يمكن أن أبحث فيه
عنى : سرّاً كما نفا في عالم الغيب ، ثم نواة مفقودة قلباً نشرة
مدركة . فأفسح لي من شأنك العظيم واحرقني بخوراً بعيداً
لي جواً أعيش فيه ساعة الذكرى !

ودخلت قدس الروح العطر ، ومع ذلك « الصندوق العجيب »
جمجمتي ! أتحمس الشعاع الأول الهادي إلى مفتاح حياتي ، فلم
أر ولكنني سمعت نجوى تقول :

« حينما طلبت شعلة الحياة حطباً جديداً قبل ثلاثين سنة ،
دفع بك وأنت « لاشيء » في غيبوبة الأزل على جبل نسل تناهى
إليك من أيك عن أبيه عن . . . آدم في صف كبير من لدانك
الذين أتى دورهم في الاحتراق . . . فانتقدت البذرة وتخلقت
وركبت الذات ووضعت النذرة الصغيرة التي فيها كل ميراث آدم ،
واتصلت بها الشرارة الخفية المجهولة فدار قلبك الصغير فأضاف
بنبضه صوتاً إلى ضوء الحياة . . . وبمركته دفعا في موكبها . . .
وبمجازته جرة في شعلتها . . . فاختلج آدم فسن والآه على السلسلة
التي بينك وبينه ، فرحاً بالامتداد والخلود . . . واستبقت الملائكة
والشياطين إلى احتلال الأمكنة فيك استعداداً للعمرك المقبلة . . .
وعششت في قلبك الفرمان والتخافيش السود ، والحمامات البيض
شأنها على كل غصن . . . وطارت عليك الذرات الجامدة التامة
لتكون كينات حية في البناء الجديد .

ثم فصّلت عن المستودع الذي التقى فيه أزلتك وأبدك ،
وخرجت في موكب الربيع في ابريل سنة ١٩٠٧ مع أوراقي
وأزهاره وأغصانه وأفراخه . . . كتلة لحمية عمياء بكاء صماء . . .
فأسرع جو الأرض إلى رتيك المتلججتين في ارتباك وسرعة
لتلحقاً حركة الحياة بالأحياء ، وتفتح الأضواء أحفانك ، وكل
شعاع يريد أن يكون بشير النور ورسالة الشمس أم الحياة إلى
« عدستك » الجديدة . . .

.. وكان أول صوت انتحم أذنيك من ضجة الحياة ، صوت
الآلام . . . آلام تكاليف الحياة وحمل أمانتها القادحة التي عرضت
« على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها

مدى بصره آفاق السماء ، إذا تلفت وراءه وجد إبهاماً وغموضاً
وإذا تطلع أمامه وجد إبهاماً وغموضاً . . .

وددت لو أنى كنت الرجل الأول لأشهد نشأة الانسان
والرجل الأخير لأشهد فناء الانسان . . . الانسان الواحد الهائل
الذى يتمثل فى هذه الأشخاص التى تمتلئ بها الأرض وتفرغ
منها كل لحظة . . . الانسان الذى وقع عليه كل الضوء وكل
الظلام . . . وددت هذا لأعرف ! ولكن ليس لى متقدم عن
زمانى هذا ولا متأخر .

يا لبيّنات الجسد . . . يا قلبى الذى لم أراه ولن أراه .. يا أعضاء
وأجزاء التى تجمعت لا تكون . . .

يا نصيبى وقدى ، وإهابى وفؤادى وظاهرى وباطنى . . . !
أما ستمتن الألفة تحت هذا الرباط الضاغط ، فترون الفكك
والانطلاق ؟

إنى أشمر أن سمكتكن إصرأ ، وأرهقتكن من أمرى
عسراً ، وأذيتكن من جوار روحى : بيت النار !
إنى يقظ للصعبة وفى للرفقة فى هذه الرحلة ، لا أبخل
عليكن بالنظرة الراضية !

أيها الأيام المقبلة التى فيها الأعباء الكبيرة والصحو من
الرؤى والأحلام ، وبلوغ القمة ثم الانحدار إلى الحفرة التى فيها
الدوام والقرار . . .

أعيذ حرارة قلبى من يدك الباردة . . . ، وما وراء قلبى فهو
لسطوة قوانينك ، وصرامة نواميسك . فهذا شعرى فاصنفيه
بلون الكفن . . . وجلدى فسجل فعملك بتجميده ، وقدمائى
فاقتل قيدهما ، وأوصالى فافصلي عراها ، وإن شئت فاغلق عيني
وأحوجى سمى إلى ترجمان ، واجعلينى كجذع هصرت غصونه
وذهب رحلاه وفنونه . . .

أما قلبى فدعيه لى بأوتاره وأشواقه ، صوتاً أخيراً وصاحباً
محدثاً أعيش معه يوم يدبر الناس وترىخ الحواس ؛ حتى تطلبنى
الأرض جسداً تأكله :

عبد النعم ضيوف

فتحت لما قلبى فكادت تنكروه وتحتق بما فيه .
وقلت يا حمراء هل رجمة ! قلت وهل يرجع ما قانا !

ثم جاء العهد الذى رأيت فيه الدنيا فى شخص العلم لها عصا
تلوح لى بها إلى الحق والواجب ، والنفس والغير ، وتشير بها إلى
الأمام . . . إلى الناية . . . إلى الرجولة ، ثم تُصَلِّص بالقيود
حين يصلصل الجرس . . .

فصحت لأعلام الطريق واستيقظت لصحة ذلك الشخص
النامض المهم الذى ابتداء يضايقنى بدائه ، ويشغلى بأشيائه . . .
أنا ! فتميت وتميت وتشبهت وجاء الأمل والعمل ، وأسلمنى
الزمان إلى عهد الشباب بنداياته وهزاته ، وأقبلت الدنيا بأعراسها
وأحتوائها وبباهجها ومفاتها تتجيب وتنازل وتغنى للثمرة
الناخجة . . . واستيقظت الشياطين والملائكة للمركة التى رسمت
خططها واحتلت لها الأمكنة فى قلب الجنين ، وحامت الحمامات
والفراشات البيضاء ، والأغربة والخفافيش السود ، فتغيرت
نبضات القلب وسُممت منه أصوات لاعهد لها ولا تاريخ . . . وقال
الجسد : هأنذا . . . وقالت النفس : وهأنذى . . . وقالت الحياة :
دونكما . . .

ووقفت أنا . . . أرى المركة وأفرس فى القتلى والمصروعين
بدهشة وأسف ولذعة وعجب إلى يومى هذا ، وهكذا يدور الصراع
والقبر الموعد . . .

وارتسمت البشرية بعلومها وآدابها كلمات على ذلك العرض
الأبيض الذى فى رأسى : فألّف وباء ، وواحد وألف ، وأرض
وبحر وسماء ، ومادة وقوة ، ومثلث ودائرة ، وزنوج أفريقية وبيض
أوروبا ، وبوذا وفينوس ، والجمل وزبلن ، والسلحفاة والطيارة
والراديو ، والقبر والقصر ، والحق والواجب . . . وقيل وقالوا . . .
ولست أدرى بعد ذلك : أهو قبض على ربح . ؟ . أو إمساك على
ماء ؟ ! أو سراب على سبب ؟ !

أيها الدهر الذى صجبت له ولسته ذرّة صغيرة الى أن حمرت
كروناً فيه قلب وعقل ! هأنذا كواقف فى صحراء تلتق بها على